المنهج التجريبي عند ابن خلدون

د. سالم محمد سالم العماري
كلية الآداب والعلوم مسلاته– جامعة المرقب

تمهيد:

يعد المنهج العلمي التجريبي الرصين عند ابن خلدون، والقائم على المشاهدة والتجربة والفرض إضافة إسلامية مهمة وواضحة لمسيرة العلم التجريبي عند علماء المسلمين والعالم كله، وهو منهج مخالف لما كان عليه اليونان والهند وغيرهم من الحضارات، ومن كان لديهم علم يسمَّى العلم النظري، لذلك وبفضل علماء الأمة الإسلامية ابتكروا الأسلوب الأمثل التجريبي في تناولهم للمعطيات العلمية الكونية من حولهم، وهو ما أدَّى إلى تأسيس قواعد المنهج التجريبي، الذي ما زال العلم المعاصر يسير على هديه.

أدَّى تطبيق المسلمين للمنهج التجريبي على نظريات سابقة دون ذكر إلى اكتشاف الكثير من الأخطاء التي توارثها العلماء على مدار القرون الماضية، لم يكن علماء المسلمين على تفقُّد النظريات السابقة واختيارها، وإنَّما كانوا كثيراً ما يفرضون الافتراضات الجديدة، ثم يختبرونها حتى الوصول إلي قانون يحكمها أو نظرية، إذ أثبتت قربه من الحقيقة، ثم يختبرون النظرية حتى يثبت لهم في النهاية أنَّها أصبحت حقيقة، وفي سبيل هذا كانوا يجرون الكثير من التجارب دون كلل أو ملل.

ويؤكدون إيمانهم الكامل بالمنهج التجريبي في ظل تحصيل الحقيقة العلمية وممارستهم لهذا المنهج عن إدراك وفهم دقيق لكل مسلَّمات وأدوات وخصائص وغايات، ساعدهم في ذلك وراء النجاح ومواكبة حركة التقدُّم العلمي تطبيق تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ومبادئه السامية، والمتمثِّلة في آيات (القرآن الكريم)، و(والأحاديث النبوية الشريفة) التي تكرَّم العلم والعلماء، وتحث على إعمال العقل، ومداومة البحث في ملكوت السموات والأرض، وتحرير التَّفكير من القيود والأوهام المعيقة للكشف والإبداع، وتجارب التنجيم والتنبؤ العشوائي والتعصُّب للعرق والعرف، إلا أنَّ المسلك الذي أتبعه علماء الأصول وعلماء الحديث من أجل الوصول إلي الصحيح من الوقائع، والاختبار والأقوال، أنحسب علي أسلوب التفكير والتَّجريب؛ لذلك أستند علماء الحضارة الإسلامية على مختلف

تخصصاتهم في ممارسة المنهج التجريبي إلي مبادئ أساسية استمدوها من تعاليم دينهم الإسلامي وهي:

• عقيدة التَّوحيد الإسلامي، وهي نقطة الانطلاق في رؤية الإنسان الصائبة لحقائق الوجود كقوله تعالى:﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ سورة العلق الآية1-5.

• الإيمان بوحدانية الله تعالى يستلزم بالضرورة العقلية أنْ يرد الإنسان كل شيء في هذا الكون إلى الخالق الحكيم، الذي أوجد هذا العالم.

• منهج البحث والتَّفكير يقوم في المفهوم الإسلامي على التآلف بين العقل والواقع، ويعوّل في اكتساب المعرفة على العقل والحواس التي وهبها الله للإنسان، وقد حمَّلنا الله -سبحانه وتعالى- مسؤولية استخدام وسائل العلم وأدواته في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما قوله تعالي: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ سورة النحل الآية 78.

أولا- التعريف بابن خلدون:

ابن خلدون (1322-1406م)-(732-808ه): يعد العلاَّمة ابن خلدون من أهم المفكرين المسلمين الذين عاشوا ما بين القرن الثامن والتاسع الهجريين، ومن ثم فهو أندلسي الأصل، أمازيغي النشأة، تونسي المولد، تخرَّج من جامع الزيتونة. كان متثقَّفاً موسوعياً، ملماً بكل المعارف والعلوم والفنون والآداب المعروفة في عصره.

برع في علم التاريخ وفلسفته، بل يعد في الحقيقة مؤسس علم الاجتماع من جهة، ومؤسس علم العمران البشري من جهة أخرى، كان ابن خلدون قريباً من الملوك والحكام والسلاطين في الأندلس، والمغرب، والجزائر، وتونس، ومصر.

مارس القضاء المالكي في مصر إبان فترة المماليك، وعاش فترة المغول، واستوعب فترة العصور الوسطي بشكل جيد؛ ممَّا ساعده على طرح نظريته في العمران البشري، واستجلاء نظرية أطوار الدولة.

ألَّف ابن خلدون مجموعة من الكتب والمصنَّفات، أهمها كتاب (المقدمة)، وكتاب تاريخ ابن خلدون المسمَّى بكتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من السلطان الأكبر، و(التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً"[1].

إذاً إلى أي مدى يمكن الحديث عن فكر السوسيولوجيا عند ابن خلدون؟، وما أهم تصوراته والمنهجية في مجال علم الاجتماع؟ أو العمران البشري؟ وما أهم القرارات التي انصبَّت على التراث الخلدوني بالدرس والتحليل والتقويم والتصنيف؟، وما أهم الانتقادات الموجَّهة إلي الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون؟، وعلى هذا الأساس أنَّ ابن خلدون يمتلك منهجية علمية تجريبية واستنباطية في فهم الظواهر المجتمعية وتفسيرها وتأويلها، كما تعرَّض هذا العالم المتنور لتشويه كبير على مستوى القرارات لتراثه الاجتماعي، إلى جانب تزييف فكري وإيديولوجي مقصود من قبل قراء مستشرقين، ومستعمرين، وماديين، وماركسيين وعلمانيين، وغيرهم كثير، إلا أنَّه عكس ذلك، فهو أول عالم يدعو في صراحة ووضوح إلى ضرورة استخدام المنهج العلمي في دراسة المجتمعات البشرية، ولم يقتصر على تحديد علمه الجديد الذي أطلق عليه (علم العمران البشري)، بل حدَّد القواعد العلمية المنهجية التي استخدمها في دراسة المجتمع[2].

ثانيا- نظرة ابن خلدون إلى التاريخ:

يرتبط علم الاجتماع عند ابن خلدون بعلم التاريخ، وهذا يدل على أنَّه لا يمكن فهم الوقائع والظواهر المجتمعية إلا بدراسة علمية لتتبع المجتمعات في تطورها ومسارها لرصد القوانين التي تتحكَّم فيها من خلال علمائها الوضعيين أمثال (أوجست كونت)، وغيرهم من العلماء الذين استخدموا المنهج التاريخي في دراسة الظواهر الاجتماعية، وفهمه لعملية تقسيم العمل الاجتماعي، وتطور المجتمع البشري الذي تم من خلال مجموعة من المراحل التاريخية والاجتماعية، التي بدأها منذ ظهور المجتمعات القبلية، ماراً بمرحلة العبودية إلي الإقطاع التي أظهرت الرأسمالية، ومن هنا يقوم علم الاجتماع عبر التاريخ بالمقارنة والتفسير لمعرفة طبيعة المجتمعات والدول والأمم، ومقارنة بعضها ببعض من أجل الوصول إلى القوانين التي تتحكَّم فيها، لكن لابد أنْ يكون التاريخ مبنياً على النزاهة والعلمية والحياد والموضوعية، بعيداً عن الخرافات والشائعات والأساطير

والروايات الزائفة، أضف إلى ذلك أنَّ معرفة التاريخ ممكنة ومهمة للإنسان لبناء الماضي والحاضر معاً، واستشراف المستقبل، وبخاصة إذا بنيناها على الوثائق المتوفرة[3].

والمشاهدات الصادقة والأخبار الحقيقية والمعايشة الميدانية، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون في بداية مقدمته: "أعلم أنَّ فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم. حتي تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا"[4] ويتبيَّن لنا أنَّ ابن خلدون يعد علم التاريخ فناً جم الفائدة، أو علماً من أشرف العلوم وأسماها، والسبب في ذلك أنَّه يعرِّفنا بأحوال الأمم والدول وطبائع المجتمعات، ويساعد على فهم تطور المجتمعات الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فالتاريخ هو أساس علم الاجتماع، أو علم العمران البشري، أو هو الذي يسعفنا في معرفة المجتمع وتفسيره بشكل جيد في ضوء مجموعة من القواعد العقلية والفلسفية، كاستخدام الذهن والفكر والقياس بأحداث الماضي؛ بغية بناء الحاضر والاستعداد لبناء المستقبل، وما يدعو إليه ابن خلدون هو تنقيح الأخبار والروايات التاريخية، واستخدام العقل والتأمل في عملية النقل، وافتحاص المرويات والتعديل وسير الروايات، وضبطها بناءً على مقاييس المقارنة والمنطق والواقع؛ لذلك انتقد ابن خلدون المؤرخين السابقين الذين كانوا ينقلون الأخبار الكاذبة دون فحصها أو نقدها، أو غربلتها أو تقويمها بطريقة التجربة العلمية، ويناقشوها بالعقل والمنطق، وقد يكون ذلك التزايد في الأخبار، أو تزييفها مرده إلى بواعث ذاتية، وأهواء شخصية وموضوعية مقصودة، أو سببها الرغبة لتحقيق المنافع أو المصالحة الشخصية أو الدنيوية، أو يكون ذلك لدوافع سياسية وحزبية أو دينية. وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: "أعلم أنَّه لمَّا كانت حقيقة التاريخ أنَّه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحُّش والتأسيس والعصبيات، وأصناف التغلُّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران، لما كان متطرف للكذب في طبيعة الخبر، ولما كان متطرف لصدق في طبيعة الخبر، فإذا كانت النفس في حالة الاعتدال في

قبول الخبر أعطته حقه، حتى يتبيَّن صدقه من كذبه، ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمحيص[5].

ذلك يرجع إلى التعديل والتخريج، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين، أو سمع، أو ينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب، والعكس من ذلك منهم من توهَّم الصدق كالثقة بالناقلين في نقل أحوال الواقع كما رآها، وهم لهم مراتب الثناء والمدح والناس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها[6].

يلاحظ أنَّ ابن خلدون **يقارن** بين (التاريخ وعلم الاجتماع) حتى يصعب الفصل بينهما، فموضوعهما واحد، هو التجمع الإنساني، ودراسة العمران البشري، وبيان أحوال هذا العمران في توحشه و تأنسه، وفي بداوته وتحضره، ورصد طبيعة هذا الانتقال من حالة إلى أخرى، وما يقوم به علم التاريخ هو دراسة تطور المجتمعات من حالة إلى أخرى، بهذا يعلن ابن خلدون تأسيس علم جديد لم يكن عند الشعوب السابقة سواء كانت أعجمية أم عربية، وهذا العلم هو علم الاجتماع العمران، الذي يهتم بأحوال المجتمعات البشرية من معارفها وعلومها وفنونها، وعاداتها وتقاليدها وصنائعها. ومن ثم يعنى هذا العلم برصد ما هو ثابت في المجتمعات البشرية باستخدام العقل والتأمل والحكمة والفلسفة والتجربة، والخبرة والمعايشة، واستقرار الواقع التاريخي كلياً وجزئياً من أجل الوصول إلي قوانين تخضع لها الدول.

ثالثاً- نظرته إلى العمران البشري:

ينقسم العمران البشري إلى ستة أقسام هي:

1- الباب الأول في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.

2- الباب الثاني في العمران البدوي، وذكر القبائل والأمم الوحشي.

3- الباب الثالث في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.

4- الباب الرابع في العمران الحضري والبلدان والأمصار.

5- الباب الخامس في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

6- الباب السادس في العلوم واكتسابها وتعلمها[7].

من خلال صورة التقسيم كان ابن خلدون قد سبَّق العمران البدوي على غيرها؛لأنَّ البداوة أسبق من الحضر، وأنَّ البداوة هي أصل الحضر– وأنَّ البادية أصل المدينة، أي أنَّ البداوة هي التي تحوَّلت إلى المدن والأمصار بفعل التوسُّع والتمدُّن، والانتقال من الضروري إلى الحاجي والكمال، يقول ابن خلدون: "إنَّ البداوة المقصرون على الضروري في أحوالهم لعاجزون عما فوقه، وإنَّ الحضر المعتنون بحاجاتهم الترف والكمال في أحوالهم"[8]، وقد قدَّم الملك على البلدان والأمصار، وقدَّم المعاش لأنَّه ضروري طبيعي لحاجة الناس وإكمال حاجاتهم، كما قدَّم تعلُّم الصنائع لأنَّها تفيد الكسب والمعاش ومعرفة العلوم واكتسابها.

ولاسيما أنَّ ابن خلدون في كتابه (المقدِّمة) ركَّز على العمران العربي الإسلامي في العصر الوسيط، حيث قسَّمه إلى عمران بدوي، وعمران حضر، ومن ثمَّ فالتاريخ هو عبارة عن حركة انتقالية من البداوة إلى الحضارة عبر الدولة، من هنا ذكر أنَّ الدولة تعيش مجموعة من الأطوار من نشأتها إلى موتها وفنائها واضمحلالها، وقد لا تتعدى الدولة في حياتها مائة وعشرين سنة، أو ثلاثة أجيال متعاقبة، ويتخذ هذا المسار طابعاً هرمياً دورياً، وليس خطاً مستقياً، كذلك فالدولة تنتهي مع مرحلة البذخ والترف والانحلال الأخلاقي، وخاصة عندما تغير قبيلة على أطراف الدولة فتنتصر على تلك الدولة، وتؤسس نظاماً عصبياً، وتقوى الدولة بقوة العصبية، وتتمسَّك بالدين والعقيدة والولاء، ويتم هذا التحوُّل من طور البداوة إلي طور الحضارة، أو من خشونة البداوة إلى رقة الحضارة بمقتضي طبع العمران، أو الدورة العصبية، وهذا غير خاضع إلى قوانين المنهج العلمي، أو التفسير العلمي أو السببي لها.

رابعاً– أهم المناهج التي استخدمها في دراسة التاريخ:

يرفض ابن خلدون التسليم بآراء الأسلاف، وما وصل إلينا وكأنَّه يوضِّح بأنَّ الأحداث التاريخية في المجتمعات أنَّه لا يمكن التصديق بأنَّ الظاهرة الاجتماعية التي تحدث في الماضي لا يمكن من حدوثها في المستقبل ومعالجتها، كالظاهرة بنظرة الانتقادية، ومن خلال مبدأ المطابقة أي التأكيد من إمكانية أو استحالة وقوع حادثة معينة، فمنطق الضرورة[9].

الاجتماعية بكل مرحلة تاريخية هو الذي يفترض قبول خبر متوارث أو رفضه، أمَّا الأحداث الفردية الخارقة التي قد تتجاوز هذه الصورة فهي أمر عارض لا يقدِّم صورة عن المجتمع بأكمله؛ لأنَّه لا يمكن ملاحظة ظاهرة اجتماعية، وإجراء التجارب عليها والخروج بعلم عام يحكم به كل الظواهر الاجتماعية.

من خلال ذلك ركَّز ابن خلدون على أهمية الملاحظة، الأمر الذي ساعده في ذلك خبرته الواسعة كدبلوماسي ورحَّالة وكاتب، وجمع معلومات واسعة عن العرب والأمازيغ، والبربر والفرس واليونان والأتراك والرومان، وعن أنواع الملوك. ومن خلال المادة الأولية التي جمعها معتمداً على العديد من الظواهر والملاحظات يمكن القيام والكشف عمَّا يحكم الظواهر العمرانية من قوانين ثابتة، "بإرجاع الأخبار إلى طابع العمران[10]، "كذلك أكد ابن خلدون على ضرورة الأخذ بالمنهج المقارن بين الظواهر الاجتماعية، ومدى التوافق والاختلاف بين ماضي الظاهرة العمرانية وحاضرها؛ من أجل كشف ما طرأ عليها من تغيرات، ورصد تحويلات النظم العمرانية تاريخياً، وتتجلَّى طريقة المقارنة باستخدام منهجين هما(**المنهج المقارن، والمنهج التجريبي**)، المقارن يستخدم في العصور السابقة بالدولة خلال عصره،لأنَّ أحوال الوجود العمران متفاوتة، كذلك إجراء التجارب على مجموعة من البدو والحضر، وبخاصة عند وصف أهل البداوة بالكرم، وأهل الحضر بالتمدُّن، وكذلك ما يميز المنهج الخلدوني في البحث الفلسفي التاريخي في دراسة الظواهر الاجتماعية، إنَّه ربط بين التحليل والتركيب للتوفيق بين الاستقراء والاستدلال في البحث الاجتماعي.

يرفض ابن خلدون النظرة الأحادية الجانب التي تنطلق من هاتين الطريقتين المنطقيتين في البحث العلمي بعامة، وفي دراسة الظواهر التاريخية بخاصة، فكل من هاتين الطريقتين يمتلك قيمة نسبية لا يمكن أنْ تتحقق إلا بالارتباط العضوي مع الطريقة الأخرى، أي الاستدلال والاستقراء، يكمل أحدهما الآخر، لذلك يعد (كتاب المقدمة) من أولئك المفكرين الذين ثاروا ضد منهجية القرون الوسطي، وأنَّ هذه النظرة قادت ابن خلدون إلى ضرورة تجاوز حدود السرد البسيط للأحداث التاريخية، والوصف المباشر للوقائع الاجتماعية[11].

والنقل الميكانيكي للحقائق والثقة المطلقة بما جاء به السابقون، وعدم التحليل كل ذلك إلى تسيير هذه الأحداث، وتلك الوقائع والحقائق، وإلى فهم طبيعتها الجوهرية.

فمن خلال الأحداث المشاركة والأخبار المتضاربة للاجتماع البشري يشير بوضوح دون تردُّد بالرابطة السببية للوجود، فكل حادثة لا بد وأنْ يمتلك سبباً لها، وهذا السبب لا يمكن أنْ يوجد خارج الحادثة نفسها، ولا بد أنْ يكون عنصراً غريباً عنه علاقة دخيلة على جوهره، إنَّه على العكس من ذلك يمكن في الحادث ذاته في ماهيته الداخلية في علاقاته الجوهرية. وهذا يعني أنَّ دراسة وتفسير أو نقل الأحداث التاريخية كل ذلك يجب أنْ يعتمد على معرفة القوانين التي تخضع لها العملية التاريخية، أي على فهم الرابطة السببية لظواهر الواقع الاجتماعي، كذلك يستند ابن خلدون إلى منهجية جديدة في دراسة التاريخ والظواهر الاجتماعية في الأساس على استخدام العقل، في فحص المرويات والأخبار والمنقولات، وإخضاعها للتأمل الفلسفي التجريبي الواقعي، والترتيب الجيد في قبول الروايات، واستعمال النقل كما كان الأمر ملزماً لذلك. ومن ثم فمنهجية ابن خلدون استقرائية تهدف إلى استنباط القوانين التي تتحكَّم في مجرى التاريخ وتطور المجتمعات مثل: قوانين العمران البشري (النشأة، المجد، الاضمحلال، والموت)[12]، ومعناها أنَّ الدولة تنشأ مثل الإنسان، وكما وصلت الدولة مبلغ القوة والمجد فإنْ لم تحافظ على ذلك بقوة العصبية والنسب والولاة والعقيدة، ومالت إلى حياة الترف والرفاهية وعن العمل والجهاد، كان مصير هذه الدولة الاضمحلال. إضافة إلى ذلك فقد طبَّق ابن خلدون مناهج العلوم الطبيعية والفيزياء والحيوان والنبات على الظواهر الاجتماعية مثل التي كانت عند نيوتن، كشف القوانين والعوارض التي تخضع لها وقائع التجمُّع الإنساني، وفي هذا الصدد يقول علي عبد الواحد وافي: "اعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة الظواهر الاجتماعية في الشعوب التي أتيح لها الاحتكاك بها، والحياة بين أهلها، وما تؤديه الافراد من وظائف داخل حياة الأفراد والجماعات، والعلاقات التي تربطهم بعضهم مع بعض باختلاف الأمم والعصور" ، **وما نلاحظه** في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين هما:[13]

الأولي تتثَّمل في ملاحظات الحسية والتاريخية للظواهر الاجتماعية، والثانية تتمثَّل في عمليات عقلية يجريها على الموارد الأولية؛ من أجل الوصول إلى القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية[14].

وهذا يعني أنَّ ابن خلدون يعتمد على النهج التجريبي الوضعي الاستقرائي الذي يسير عليه (دوركايم) في أبحاثه السوسيولوجية، متبعاً الخطوات الآتية:

1-التشكيك في الآراء السابقة، أو الشائعة بفحصها ونقدها وتحقيقها والتثبُّت منها.

2-ملاحظة الظواهر المجتمعية، أو المجتمعات التي رآها وزارها وعايشها ملاحظة علمية دقيقة قائمة على الخبرة، والواقعة والاستقراء والتأمل العقلي.

3-صياغة الفرضيات والقضايا الاجتماعية الكبرى في شكل عناوين فرعية للبرهنة عليها منطقياً واستدلالياً.

4-تفسير الفرضيات والقضايا الكبرى بشرحها وتوضيحها والاستدلال عليها ومقارنتها وموازنتها.

5-استنتاج القوانين والعوارض وتعميمها في شكل نظريات مجرَّدة عامة مستقاة من الواقع التجريبي الملاحظ.

6-تتبع الظواهر المجتمعية في مختلف مراحلها التاريخية المتعاقبة، وتفسير أثارها بعللها وأسبابها.

7-ربط المتغيرات المستقلة والتابعة بعللها وأسبابها؛ بغية استخلاص القوانين وتعميمها على شكل قوانين.

8-الانطلاق من الجبرية أو الحتمية التاريخية في قراءة المجتمعات البشرية، وبخاصة أثناء انتقالها، ومن حالة البداوة إلى الحضارة[15].

9-الترجيح بين الاستنباط والاستقراء في تحصيل النتائج أو تثبيتها والبرهنة عليها.

من هنا يمكن القول: إنَّ ابن خلدون استعمل المنهج التجريبي قائماً على الافتراض والاستدلال، والاختبار والتثبت من الروايات المنقولة، ثم الاستنتاج، ثم استخلاص القوانين والنظريات العامة، لا ينطلق ابن خلدون من خياله أو الْاخبار الموجودة، بل يستعمل تأملاته الفلسفية، ويستقرئ التاريخ، يوظف تجاربه وخبراته فى الحياة بهدف بناء نظرياته

وأحكامه العامة، ويعني هذا أنَّ ابن خلدون كان مرتبطاً ببيئته التاريخية والجغرافية، منفتحاً على الظروف السياسية التي كان يعرفها المغرب الكبير إبان العصر الوسيط. بيد أنَّ الاستقراء التجريبي ليس كلياً وشاملاً، بل كان استقراءً ناقصاً؛ لأنَّه لم يشمل باقي التجارب السياسية كتاريخ العجم مثالًا. مستنداً في ذلك على مجموعة من المصادر التي يمكن حصرها في القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتأمل العقلي، والخبرات التجريبية والمعاشية، وعلم الكلام والفلسفة والمنطق والتاريخ. ويخص بذلك منهجية في عرض بحوثه معتمداً في ذلك على طريقة علمية تبدأ بتقسيم كتابه إلى أبواب كبرى، وتفريغ كل باب إلى عناوين فرعية في شكل قوانين وفرضيات ومسلَّمات ونتائج توصَّل إليها الباحث بحض التجربة إلى الشرح والتوضيح والاستدلال بغية فرضيته أو استنتاجه الذي وضعه في العنوان (الفصل السابع في أطوار الدولة)، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار، ومن خلال ذلك يقول (علي الوردي)[16] عن ابن خلدون في كتابه المقدمة لابن خلدون،"إنَّه من محاسن ابن خلدون أنْ يقل مبدأ السببية أو العلة والمعلول من عالم الفلسفة إلى عالم التاريخ بما يخص دور الفرد والجماعات الاقتصادية فيه، فكان التاريخ بالنسبة له محض ترابط وتشابك في الزمان والمكان وارتباط بين العلة والمعلول، وليس حوادث ووقائع اعتباطية منفصلة عن بعضها البعض "وبعبارة أخرى فإنَّ ابن خلدون رأى بأنَّ التاريخ في ظاهره نظرة وتحقيق وتجريب وتعليل للكائنات، ومبادئها دقيقة، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. معتمداً في ذلك على مجموعة من:

خامساً- المراحل والخطوات الإجرائية:

- عملية تحديد الموضوع،
- عملية التحقق
- الجرح والتعديل
- عملية المعايشة
- عملية الملاحظة
- عملية الفرض

- عملية الاستنباط
- عملية التأريخ
- عملية المقارنة والموازنة
- عملية الوصف والتحليل
- عملية التصنيف
- عملية الاستنتاج
- عملية التعميم[17]

سادساً- المصطلحات والمفاهيم الاجتماعية: اعتمد ابن خلدون علي ترسانة من المفاهيم والمصطلحات الاجتماعية في تحليله الاجتماعي بين النقل والعقل، وبين التجربة والتأمل، وبين الوحي والواقع الميداني، وبين الاستقراء والاستنباط، وهي:

الملاحظة، التجربة، الفرض، الصراع، التعاون، التكيف، البدو، الحضر، العمران، العوارض، الذاتية، علم العمران البشري، علم السياسة المدنية، الاجتماع الإنساني، الأمم الوحشية، العصبية، المراتب، السلطانية، الدولة، العامة، الملك، الخلافة، المعاش، الصنائع، الكسب، الطبائع، التوحُّش، التأنس. على الرغم من أنَّ هذه المصطلحات قد تكون.

غير كافية ما يليق بالعالم الإسلامي الجليل، حيث يقول عنه منصف وناس: "أنَّ ابن خلدون لم ينشئ منظومة مفاهيم خاصة به، تستجيب لنظريات وحاجات العلم الجديد، باعتبار أنَّ كتابه المقدمة تراكم معرفي يمكن يساعد على تصحيح لمفاهيم بقيت غامضة مثل مفهوم الدولة والعصبية والأمة، فإنَّ المجتمعات المغربية الحالية تحتاج إلى ربط جدلي بين الماضي والحاضر. وربما عدم وضوح بعض المصطلحات وغموضها حتى في هذه الدراسة، ولكن هناك خصائص عامة ما يتميز بها ابن خلدون وتكفيه فخراً أنَّه عالم إسلامي أرسى دعائم عالم الاجتماع الإسلامي الرصين وركيزة للمجتمع الغربي"[18].

سابعاً- خصائص الفكر التجريبي الاجتماعي عند ابن خلدون:

استفادة ابن خلدون من الكتابات الاجتماعية والمناهج التجريبية السابقة، كما كانت واضحة عند علماء المسلمين وغيرهم من العلماء التجريبيين. وكذلك أرسي دعائم علم الاجتماع على المنهج التجريبي بين المجتمعات والجماعات البشرية تصوراً وتطبيقاً، ونظر للعمران البشري وفرَّع علم الاجتماع إلى أغراض ومواضيع وميادين ومجالات، استفاد من علم التاريخ لبناء نظريته في علم الاجتماع والعمران البشري. وساهم في تفسير نشأة الدولة بالتركيز على العصبية والعقيدة.

من الأفكار الأساسية التي تعد من خصائص الفكر الخلدوني، هو نظريته السياسية، وكيفية تغير أشكال السلطة وممارساتها ذلك على مسيرة المجتمع وعملية تطورها. فقد تناول ابن خلدون معظم الظواهر الاجتماعية والظواهر السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والتاريخية والدينية والثقافية والعلمية والتربوية، ويعني هذا أنَّ كتاب المقدمة يتضمَّن مجموعة من فروع علم الاجتماع العام، مثل قواعد المنهج في علم الاجتماع وعلم التنبؤ البشري (الإيكولوجيا) تأخذ به كثير من الدول المتقدمة التي سارت عليه أشواطاً من التنمية. كذلك تعد مقدمة ابن خلدون عملاً موسوعياً قدَّم لنا فيه صورة كاملة للحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية في صورة تجريبية للمجتمع الإسلامي الوسيط، الأمر الذي جعل العديد من العلماء يعترفون بصراحة قيمة[19].

كتابات ابن خلدون وتأثيرها في تحليل قضايا سوسيولوجية مهمة لا تزال تشكِّل اهتمامات العديد من علماء الاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد والأنثروبولوجيا وغيرهم، على الرغم من أهمية المقدمة عند ابن خلدون أنَّه أرسى علم الاجتماع بجميع صورة، فإنَّها لم تترك أثراً في الباحثين اللاحقين الذين عادوا إلى الفلسفة الاجتماعية، كما يتضح ذلك عند علماء الغربيين، ولم ينطلق السوسيولوجيون الغربيون أمثال أوغست كونت(1779-1857م) من نظريات ابن خلدون كأنَّه غير موجود في تاريخ الإنسانية في حين أنَّه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع، فإنَّنا في الحقيقة لم نشاهد من خلال الدراسة أنَّ هناك بحوث سابقة قد تتناول ظواهر اجتماعية في مجموعها، وعلى أنَّها شعبة مستقلة ودرسها كما تدرس العلوم الطبيعية والرياضيات وظواهرها، أي الكشف عن طبيعتها وما

تخضع له من قوانين، ولم نجد هذا العلم عند أي أمة من الأمم التي سبقته؛ لأنَّه لم يخرج من الإطار الواقعي ضمن العمران البشرى، خاص كانت تجربته بين الاجتماع الخاص بالاستقرار(الاستاتيكا) والاجتماع الخاص بالتطور(الديناميكا)[20]، ولم يجعلهم عالمين مختلفين، وإنَّما مظهرين مختلفين لحقيقة واحدة، وعلى هذا فلا يوجد بينهم فاضل وأنَّ التقسيم بينهم لا يكون إلا فى الملاحظة فقط، ففي الملاحظة الأولى نفترض فى المجتمع حالة ثبات، بينما نفترض في الثانية حالة التطور، وبعد تحليله لهذين اعتباره الأسرة هي النواة الأولى للمجتمع، وأول ثمرة من ثمرات الحياة الاجتماعية، وأنَّ المجتمع الإنساني يتكوَّن من الأسرة لا من الفرد، فالفرد فى نظر علم الاجتماع فكرة مجرَّدة، وأنَّ القوانين التي تحكم الأسرة تختلف القوانين التي تحكم المجتمع، وأنَّ كل مجتمع يمر بثلاث مراحل: مرحلة اللاهوتية يتسم فيها الفرد بالبدائية، ومرحلة الميتافيزيقية، يسود فيها النظام الطبيعي وتفسير لسببية، والمرحلة الإيجابية وهي تطور البشر عملية التفسير بمصطلحات فى العملية الطبيعية والقوانين العلمية[21].

الخاتمة:

من خلال ما سبق يصل الباحث إلى أنَّ ابن خلدون كان تجريبياً بالمعني الحقيقي، ويعد من علماء المسلمين الذين أعطوا التجربة حقها فى مجال الربط بين الاستاتيكا والديناميكا– إلا أنَّه أنكر بصورة قاطعة إمكانية تحويل المعادن الخسية إلى معادن ثمينة، وإجراء التجارب عليها، وذلك أنَّ كل معدن يتميز بخصائص ذاتية بحيث تشكِّل عنصراً مستقلاً ومنفصلاً عن الآخر، أمَّا أهل الصنعة فهم يعتقدون أنَّ المعادن كلها تنتمي إلى نوع واحد في الأساس؛ لأنَّ الاختلافات بين المعادن إنَّما هي اختلافات عرضية وليست جوهرية. وفي ذلك يقول ابن خلدون في كتابه(المقدمة): "وفي زعمهم أنَّه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير، وأنَّه يلقي فيه على الجسم المعدني المستمد لقبول صورة الذهب أو الفضة، بالاستعداد القريب من الفعل، مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أنْ يحمى بالنار فيعود ذهباً إبريزا".

وكذلك يرى ابن خلدون ذلك سحراً، أو شبه بالسحر، بل أنَّ مصطلحاتهم غير مفهومة فهي تشبه الألغاز والرموز. وكذلك يهاجم ابن خلدون الذين يشتغلون هذه الصناعة ويصفهم بأنَّهم كسالى وعاجزون حتى على تحصيل معاشهم).

فيقول في الفصل الرابع والثلاثين من المقدمة (اعلم كثيراً من العاجزين عن معاشهم. تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع، ويرون أنَّها أحد مذاهب المعاش ووجوهها، وأنَّ اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه، فيرتكبون منها المتاعب والمشاقة).

إذن ابن خلدون يرفض وبشدة قوية ويرى هي نوع من اكتساب المال.

أهم النتائج:

- تبين السبب الذي أدى ابن خلدون إلي نشأة علم جديد يطلق عليه العلم التجريبي يدرس الظواهر الاجتماعية، كان حرصه على تخليص البحوث التاريخية من الأخبار، وعلى نشأة أداة يستطيع بفضلها أنْ تمد الباحثين بأداة يميز بها ما يحمل الصدق، وما لا يمكن صدقه من أخبار العمران.
- كذلك كان حرص ابن خلدون على دراسة الظواهر الاجتماعية يرجع إلى إصلاح المجتمع وتخليصه من الفساد في الأخلاق، وطرق الفهم في سبيل إلى أنَّ إصلاح المجتمع يرجع إلي إصلاح التفكير الإنساني.
- كما نستنتج من ذلك أنَّ ابن خلدون سار بالظواهر الاجتماعية مثل ما تسير عليها العلوم الأخرى حتى تحقق السلام في كافة الأشياء، وعدم تأخر العلوم الاجتماعية عن العلوم الأخرى.
- اعتبر ابن خلدون بأنَّ الأسرة هي النواة في المجتمع والمحافظة على كيانها هو المحافظة على المجتمع من الانحلال والفساد.
- كذلك نستنتج بأنَّ ابن خلدون يرفض إمكانية تحويل المعادن الخسية إلى معادن ثمينة، وإجراء التجارب عليها، وذلك أنَّ كل معدن يتميز بخصائص ذاتية.

هوامش البحث ومراجعه:

1-عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، المصدر، منشورات لبنان، بيروت، ط1984م.

1- عبد المعطي وعبد الباسط، اتجاهات نظرية للثقافة والفنون والآداب، بدون تاريخ الطبعة والنشر.

2- وسيلة الخراز: الأيديولوجيا وعلم الاجتماع، جدلية الانفصالية والاتصال، منتدى المعارف، بيروت، لبنان،ط الأولى، سنة 2013م.

3- عبد الرحمن بدوي، مؤلفات ابن خلدون، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط،1977م.

4- المهدي عامل، فى عملية التفكير الخلدوني:العدد الأول، بيروت ط، 1989م.

5- فؤاد البعلبكي: ابن خلدون وعلم الاجتماع الحديث، ط،1997م.

6- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ديوان السلطان الأكبر، بيروت لبنان.

7- طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، ترجمة محمد عبدالله عنان، ط،2006م.

8- علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع، النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

9- علي الوردي، دراسة علي المجتمع العراقي، العدد1277/ ط2009/م

10-المصنف وناس، منظومة الاصطلاحية الخلدونية: مقارنة نظرية للمصطلحات عند ابن خلدون، الفكر الاجتماعي الخلدوني للمناهج المعرفية، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان،ط الأولى،2004م.

11-كلثم علي وآخرون: موجز تاريخ الفكر الاجتماعي، سلسلة علم الاجتماع، الكتاب الثاني الأهلي للتوزيع، دمشق، سورية، ط،الأولى،2001م.

12-حسين الساعدي،علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ط،1974م.